الجماعة الوطنية
براءة الأديان من أسباب الإحتقان ! (*)

ظواهر الحساسيات التى تسللت عبر سنوات إلى الجماعة الوطنية ، تستوجب وقفة صادقة فاحصة متأملة ، لأن النسيج الوطنى هو قوام الوطن وعماد حاضره ومستقبله ... هذه الوقفة تستوجب فيما تستوجبه أن تمتد أنظارنا وبصائرنا باحثين مفتشين منقبين مدققين ممحصين فى كل شئ ، ما عساه يكون أو لا يكون سببا فى إثارة الحساسيات ، لا نستبعد شيئا أو عاملا أو سببا إلاّ بعد اخضاعه للنظر والتأمل والفحص والدراسة الجادة الصادقة .. هذه الغاية تستحضر بصدقها عناصر وعوامل عديدة يتوجب علينا أن نفتش فيها لنفرز فى النهاية بين «السبب» و«غير السبب» ، وبين «الواقع» و «الوهم» ، وبين «الحقيقة» و«الظن» ،وبين «العام» و«الخاص» ، وبين «الفعلى» و «المفتعل» ، و«الداخلى» و«المستورد» ، و«الصادق » و«المضلل»!!

نقطة البداية التى لا يجوز التحرج عندها ، هى التفتيش والبحث فى «الأديان» ذاتها ، هل هى سبب للحساسية أو الاحتقان أو العداء ؟! إن الأديان خلاف القوانين والفرمانات والأوامر لا تقوم إلاّ على الرضا والاقتناع والإيمان .. القوانين والأوامر والفرمانات قد تُفرض على الناس فَرْضًا بالقسر والإجبار والإرغام ، وقد يُحملون حملا برغم

(*) الأهرام ٥ ، ١١ ، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٨.

إرادتهم وحتم أنوفهم على الانصياع لها ، ولا يعنى الآمر الفارض أن يكون المخاطب الملتزم مقتنعا أو غير مقتنع بالقانون أو الفرمان أو الأمر ، فالغايه هى احترامه وتطبيقه والالتزام به ، لأنه يصب فى نظام ما يحرص عليه ، ولا يعتنى بالحنايا والقلوب والرغاب والقناعات .. ولكن الدين شئ آخر ، بغايةٍ أخرى ، وقوامٍ وفلسفةٍ مغايرة .. الدين فى جوهره داخلى .. داخلى فى علاقة الآدمى مع نفسه ، وفيما يخاطبها وتخاطبه به ، وداخلى فى علاقته بربه عز وجل ، بل هو يكاد يكون داخليا فيما يباشره أبناء الديانات من فروض وصلوات وطقوس ومناسك تعنى أساسًا بالداخل وتفسد غايتها إذا إهتمت فقط بالظاهر وداخلها النفاق والرياء ! عناية الأديان أساسا واتجاهها إلى داخل الإنسان وإيمانه ، أوجبت وستظل توجب قاعدة بدهية هى أن قوام الأديان انتشارا أو انحسارا هو بوصلة الآدمى الداخلية التى تستجيب وتُقْبَل ، أو تنأى وتُعرض ، وقوامها الرضا والاقتناع والإيمان ، وتأبى بطبيعتها القسر والإجبار والإرغام !

هذه الحقيقة تفوت الكثيرين حين يتوقفون أو لا يتوقفون عند عهد الحديبية الذى عقده رسولا لقرآن ﷺ ، مع قريش ومن والاها ، وارتضى فيما ارتضاه فيه ، أن يرد إلى قريش من يأتيه منها مسلما ، وألا ترد إليه قريش من يذهب إليها مرتدًا عن الإسلام !.. يومها عاجلت عمر بن الخطاب حميته ، وأثاره ما ظنه عدم سواء فى الميزان : أن يرد المسلمون إلى قريش من يأتيهم منها مسلما ، بينما لا ترد قريش من يذهب إليها مرتدا عن الإسلام ! وفات عمر فى حميته أو ثورته مثلما لا يزال

يفوت كثيرين ، أن لب الموقف النبوي يصدر عن حقيقة لا تفوت ، هى أن الأديان لا تنتشر إن انتشرت إلا بالرضا والاقتناع ، ولا تفرض بالقسر والإجبار والإرغام ! وأنه لا حاجة من ثم للإسلام والمسلمين ، ولا لأى دين آخر ، بمن يفارق دينه ويرتد عنه إلى دينٍ سواه ، لأن الأديان لا تضم صفوفا شكلية مظهرية ، وإنما هى تجمع أفئدة مصدقة مؤمنة آلفها هذا الاعتقاد الذى أقبلت عليه طواعية مختارة .. وفى المقابل ، لم تكن قريش حكيمة حين شرطت أن يرد إليها المسلمون من يذهب إليهم مسلما .. فاتها أن من أسلم منها وذهب إلى المسلمين ، أسلم عن عقيدة واقتناع ، وأن رده إليها لن يخرجه عن دينه الذى به آمن ، وأنه من ثم خطر على قريش ومآربها إن صُدَّ عن المدينة وأُجْبر على البقاء بينها بمكة ، وخطرٌ عليها أيضا إن هرب منها واضطر إزاء التزام المسلمين بعهدهم لأن يتخذ مكمنا كما فعل «أبو بصير» وجماعته الذين عسكروا على ساحل البحر الأحمر ، وهددوا من مكمنهم قوافل قريش إلى الشام ، حتى أفاقت قريش إلى خطأ ما اشترطته وفاتها فيه أنه لا جدوى لها ولا أمل فيمن تركها واعتنق الإسلام ، فعادت تطلب بنفسها إلى رسول القرآن r نقض ما شارطته عليه فى عهد الحديبية من ردَّه على قريش من يأتيه مسلما منها !

الأديان السماوية نزلت لإيمان الناس ، لا لتجييش الجيوش وصناعة الأمجاد .. لا يوجد فى الإسلام مثلما لا يوجد فى المسيحية ما يدعو لمعاداة الآخرين .. طلب الأمجاد صناعة آدمية ، واختلاق العداوات انهيارات آدمية !!.. البحث والتنقيب فى كل من الإسلام والمسيحية يؤكد براءة الأديان من أى أسباب للاحتقان .. لم يصطدم أحد أو يحتقن أحد من

هنا أو هناك لاختلاف المعتقد المسيحى الذى يرى أن «شخص» السيد المسيح هو الذى صلبه اليهود ، عن المعتقد الإسلامى الذى يؤمن بأنه «شبيه» له وليس شخص السيد المسيح الذى رفعه الله إليه ، وكتبت الكتب عبر أجيال عن عقيدة التوحيد الإسلامية ، وعن عقيدة التثليث المسيحية ، دون أن يخلق هذا سببا للاصطدام أو الاحتقان ، لأن المعقول الذى تتفق عليه كل العقول ، أن كلاً وراء عقيدته التى يؤمن بها ولا يرتضى لها بديلا .. يصدق هذا على المسلم وعلى المسيحى وعلى اليهودى وعلى غيرهم من أتباع الديانات والمذاهب والملل والنحل بغير استثناء !

على أن الأديان بعامة ، لا يقتصر خطابها على بنيها أو المدعوين إلى دخول باحتها ، ذلك أنه مهما كان نصيب الدين أى دين من الانفتاح أو أو الانغلاق ، من الانتشار أو الانكماش ، فإنه لا يمكن أن يفترض أنه دين الناس جميعا .. فذلك محال يأباه المنطق وينفيه الواقع الحاصل المشاهد الذى يورى أن المعمورة قد تفرق ساكنوها على أديان مختلفة ، سماوية كتابية ، أو غيرها من الملل والنحل والمذاهب !

هذا الواقع فرض ويفرض على كل دين ، أن يفرد فى منظومته أسسا وقواعد وأسلوبا للتعامل مع الأغيار الذين يدينون بدين آخر أو بملة أخرى .. هذا الموقف له خصوصيته فى كل دين .. قد تقترب أو تختلف عن رؤية غيره من الأديان .. وهو الباب الذى يحدد لغة التعامل لأبناء الديانة مع غيرهم تسامحا أو ضيقا ، سلاما أو عداوة ، قربا أو ابتعادا ، تعاملًا أو إنغلاقًا ومجافاة !!

على أن الشواهد تورى بأن ما يدخل «لغة التعامل» مرده فى الواقع ملصقات الناس التى تتراكم مع الأيام ، وما تفرزه المصالح والأهواء ، وليس مرده إلى الأديان الكتابية كما نزلت من السماء .. فهى لا تحمل فى بنيتها الأصلية شيئا من أسباب الصراع .. يصدق هذا حتى على اليهودية ولذلك حديث آخر سبق أن تناولناه بالأهرام (٢/٢٧ ، ٥ ، ١٢ ، ١٩/٣/٢٠٠٤) ، أما الإسلام والمسيحية فليس يوجد فى بنية أى منهما ، ولا ملصقات الزمن والناس ، ما يرتب الحساسية أو البغض أو العداوة ، بل ان الباحث المدقق فى كل من المسيحية والإسلام ليجد مدوناتهما عامرة بالمحبة والإسماح والسلام .. لا تضيق بالأغيار أو تتنكر لهم أو تمقتهم أو تعاديهم ..

***

من المشاهد الحاضرة فى القرآن المجيد الاحترام العميق لكافة الرسل والأنبياء ، بل وجعل من الإيمان بكافة الرسالات السابقة أصلا من الأصول الاسلامية ، وجزءًا لا يتجزأ من الإيمان بالاسلام .. يقول عز من قائل : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة] .. ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

احتفال القرآن المجيد بكافة الرسل والأنبياء ، وعده الإيمان برسالاتهم أصلا من الأصول الإسلامية ، اقترن بتوقيرهم وتكريمهم أبلغ تكريم

فى آيات الذكر الحكيم .. يقرأ المسلم فى القرآن قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ١٣] .. يصافح قارئ القرآن ما أسبغه رب العالمين على هؤلاء الأنبياء من كريم الصفات والشمائل والسجايا ، وأعطر ما بثه إليهم من التحيات .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات] .. وعن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة] .. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء] .. يصفه رب العزة بأنه الحليم الأواه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود] ، وبأنه كان صديقًا نبيًّا ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم] .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات] .. تتوالى هذه النفحات المعطرة بالقرآن لجميع الرسل والأنبياء .. ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم] .. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء] .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات] .. ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام] .. ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص] .. ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصافات] .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصافات] .. ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص] .. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] .. ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١] .

يعرف المسلم مما يقرأه فى القرآن المجيد ، أنه احتفى بالسيد المسيح عليه السلام ، وبأمه مريم العذراء .. ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] .. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] ..

أجل ، يوجد اختلاف بين الإسلام والمسيحية فى طبيعة السيد المسيح ، أورد فيه القرآن المجيد بيانه، بيد أن هذا البيان لا ينعى شيئا البته على السيد المسيح ، بل ويورد القرآن الحكيم عما قاله عليه السلام لبنى إسرائيل : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢] .. المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، والبيان القرآنى حافل بآيات تنزيه وكرامة المسيح عليه السلام وتأييده بالبينات والإنجيل المنزل وروح القدس .. ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧] .. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧] .. هذه المنزلة الرفيعة التى أسبغها القرآن المجيد على السيد المسيح ، ارتفعت به أن يناله ما ينال الناس، أو يحيق به ما يحيق بهم ، وهو فى حصن الله عز وجل وتحت جناحه : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا

كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران] .. علمه ربه سبحانه وتعالى الكتاب والحكمة ، وأيده بالمعجزات المصدقة لرسالته : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

هذا الاحتفال بالأنبياء عمومًا ، وبالسيد المسيح عليه السلام ، محفور فى وجدان المسلم ، يستقيه ويتشربه من آيات القرآن الحكيم ، الذى سميت بعض سوره بأسماء السابقين على الإسلام من الرسل والأنبياء وآلهم .. سورة آل عمران ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومريم ، والأنبياء ، يس ، نوح .. يتبرك المسلمون بتسمية أولادهم بهذه الأسماء ، وبأسماء موسى وعيسى ويعقوب وإسحق وأيوب وهود وصالح وهارون وشعيب وزكريا ويحيى وغيرهم من الرسل والقديسين .. ويتعلم المسلم من قرآنه المجيد أن الأسرة الإنسانية تنتمى إلى أصل واحد ، لا فرق فيه بين أحد وآخر إلاّ بتقوى الله عز وجل .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .. مرد الخلق إلى نفس واحدة .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١] .. وفى سورة الأعراف : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .. وفى سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٨] .

***

هذا التوقير القرآنى للرسل والأنبياء ، ولرسالاتهم ، واكبه ما روى عن رسول القرآن ﷺ ، فى سياق منظومة كاملة لا تعادى الآخر أو تزدريه .. لم يدع عليه السلام إلى سبيل ربه إلاّ بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يجادل إلاّ بالتى هى أحسن ، ولم يلو أحدًا أو يكرهه على دين ، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولم يلاحق من يعرض عن الهداية والدعوة إلى سبيل الله .. ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] .. فالهدى هدى الله ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨] .. والمسلمون لا يتعاونون إلاّ على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان ..

هذا كله وغيره يصب فى عقيدة المسلم وحناياه سماحة وإقبالًا خالصا .. هذا الإقبال ينطوى على المزيد من الإخاء للنصارى من واقع ما علمّه ويعلمه المسلم من القرآن الحكيم .. قد لاقى نبى القرآن ﷺ والمسلمون الأوائل عداءً وكيدًا من يهود بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير ، ولكنهم لاقوا مودة ورحمة من المسيحية والمسيحيين ومن نجاشى الحبشة المسيحى .. حدث القرآن المجيد فقال عن ذلك : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة] .. العبرة فى

هذه الآية ككل آية هى بعموم النص لا بخصوص السبب .. فى المنظومة المحمدية : المسلم آلف ومألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف .. فى الحديث النبوى أن السلام قبل الكلام .. وفيه : «ولا تؤمنوا حتى تحابوا : ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشو السلام بينكم» .. هذه الدوحة الإسلامية اتسعت ولا تزال متسعة لأهل الأديان ، وللنصارى على وجه الخصوص .. فى القرآن المجيد : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة:٥] .. فى رسالة رسول القرآن ﷺ إلى عامله فى اليمن : «**من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتتن عنها**» ، والذميون فى الحديث النبوى : «**لهم مالنا وعليهم ما علينا**» .. «**من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**» ..

طبيعى أن يكون إيمان المسلم بإسلامه لا بسواه ، وأن تكون عقيدة المسيحى فى مسيحيته لا سواها .. ولكن المؤكد أنه لا يوجد فى المدونات الإسلامية ، قرآنا وسنة ، ما يحمل عداوة أو بغضاء أو كراهية للمسيحى ، أو سببا للاحتقان ، وهو الدين الذى قال قرآنه عن النصارى إنهم أقرب أهل الأديان إخاء ومودة للمسلمين ، فهل يوجد فى المدونات المسيحية المقدسة ما يناقض هذا ؟

***

عبء المسلم فى مصر فى التعرف على المدونات المسيحية ، أعرض كثيرًا من عبء المسيحى فى التعرف على المدونات الإسلامية ، فالقرآن الكريم يتلى بالإذاعات المرئية والمسموعة آناء الليل وأطراف النهار، ويتلى فى التعازى والمناسبات ، وتلتقطه أذن المسيحى بترتيله الجميل

قصدًا أو عفوًا ، فليس غريبا ولا نادرًا أن تجد بين المسيحيين من ينصتون إلى القرآن ويعجبون بكلامه ومعانيه ومعماره وموسيقاه وجمال ترتيله ، ولا يخلو هذا الإنصات من إلمام ما بما فى ذلك الكتاب المجيد ، بينما مدونات المسيحية لا تتلى غالبا إلاّ فى الكنائس ، فى الصلوات والتعميد والزواج وفى العزاء والتأبين ومراسم الجنازات ، وقد تتخللها تلاوة باللغة القبطية التى لم يعد يلم بها إلاّ القساوسة ورجال الدين المتخصصون ، ومن هنا كان إطلال المسلم على ما ورد بالعهد الجديد إطلالًا محدودا أو يكاد ، يتعامل معه المسلم على الجملة تعاملًا لا يخلو من قلة المعرفة وضمور الإلمام بما فيه .. لست أعنى قراءة المسلم للأناجيل ليكون مسيحيًا ، ولا قراءة المسيحى للقرآن ليكون مسلمًا ، فقد اتفقنا على أن اعتناق الأديان حديث داخلى ، قوامه الرضا والاقتناع ، وإنما أتحدث عن الإلمام بالقدر الذى به يعرف كل من المسلم والمسيحى هل فى مدونات الدين الآخر ما يحمل أسبابا للكراهية أو المقت أو العداء أو الحساسية أو الاحتقان؟

طفنا بالمقال السابق بنذر يسير مما ورد بالقرآن الكريم ممجدًا الأنبياء والرسل بعامة ، وللسيد المسيح وأمه البتول بخاصة ، وإيمائه إلى انتماء البشرية إلى أصل واحد ، بل ونفس واحدة ، وإلى دوحة العدل والمساواة والتسامح التى تملأ حنايا المسلم إحساسا بالأسرة الإنسانية وتفاعلًا وتعاملًا طيبًا معها، ولست أبالغ ولا أسبق إلى نتائج حين أبادر بتقرير أن المدونات المسيحية أصدق ما يصدق عليها أنها شريعة المحبة والسلام والوئام .. يعرف ذلك من اتسع وقته واتسعت سماحته من المسلمين للإطلال على ما ورد بها .. لا تعارض بين ذلك وبين إخلاص

المسلم لإسلامه ، بل هو فى النهاية تعميق للفهم ، وقشع للانغلاق المورد إلى التعصب ، وإدراك للأخوة بين الأديان التى تنتمى فى الأصل إلى شجرة واحدة ونبع واحد .

أجل ، يوجد اختلاف بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية فى «شخص» المصلوب وفى طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، ولكنه اختلاف عقائد مآلها إلى داخل الإنسان وعلاقته بربه لا بتعاملاته مع الناس .. العلاقة والمعاملة بين أهل الأديان أمر آخر خلاف محتوى العقيدة .. المسيحية لها تحفظاتها الهائلة على ما فعله اليهود مع السيد المسيح عليه السلام ، ولكنها لا تتخذ موقفا معاديا من الأديان ، ولم تور مدوناتها بما يمكن أن يكون تكئة أو ذريعة لمعاداة الإسلام الذى نزل بعد ميلاد السيد المسيح بنحو سبعة قرون .. حين ينظر المسلم فى منظومة المعاملات المسيحية يجد دوحة مليئة بأغصان المحبة وحبال الوداد ، وروح المؤاخاة ..

نزلت المسيحية ، وقد أهملت شريعة موسى ، وتحول الهيكل إلى مزار تجارى ، وطغت الماديات وتفرقت الطوائف إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين وسامريين ، فكان مجد المسيحية الحقيقى ما نزلت به من هداية ومحبة ، تتغيا إعادة السواء إزاء الخروج على الناموس وشريعة التوحيد التى جاء بها موسى عليه السلام ، فجاء المسيح ببساطة الضمير .. يدعو إلى ملكوت السماء فى الضمير والوجدان ، لا فى القصور والعروش .. يقول للناس : «لن تربح شيئًا إذا كسبت كل شىء وخسرت نفسك» .. لا تبالى هداية المسيح بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن ضميره .. مجده الحقيقى هذه الدعوة الهادية إلى نقاء السريرة ، وإشاعة المحبة ..

من على الجبل يلقى موعظته إلى جموع الناس فيقول لهم : «طوبى للمساكين بالروح ، فإن لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى ، فإنهم سيعزون . طوبى للودعاء ، فإنهم سيرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، فإنهم سيشبعون . طوبى للرحماء ، فإنهم سيرحمون . طوبى لأنقياء القلب ، فإنهم سيرون الله . طوبى لصانعى السلام ، فإنهم سيدعون «أبناء الله» . طوبى للمضطهدين من أجل البر ، فإن لهم ملكوت السماوات . طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم ، وقالوا فيكم من أجلى كل سوء كاذبين . افرحوا وتهللوا ، فإن مكافأتكم فى السماوات عظيمة . فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم! (متى ٥ : ١٢٣) .

دعوة السيد المسيح عارضت العنصرية ، وحذفت شرط «القرابة» التى شرطها العهد القديم للوصايا العشر .. كانت الوصايا مقرونة فى العهد القديم بحق «القريب» على قريبه ، فأطلقها السيد المسيح من هذا المنظور العنصرى .. حين سئل ﷺ عن العمل الصالح قال لسائله : «أنت تعرف الوصايا . لاتزن . لا تقتل . لا تقتل . لا تشهد الزور . أكرم أباك وأمك) [لوقا ١٨ : ١٨ ٢٠ ، مرقص ١٠ : ١٩ ، متى ١٩ : ١٨ ، ١٩] .. ولم يقل لسائله لا تشهد على قريبك أو لا تسرق قريبك ، وكل ما قاله عن القريب وصيته : «أحب قريبك كنفسك» ،على غرار حب لأخيك ما تحب لنفسك .. فلم تربط المسيحية الوصايا ذلك الربط العرقى الذى كان قبلها بالقرابات !

لم يقل ﷺ طوبى للأغنياء أو المتجبرين أو الطغاة .. حمل إلى البشرية دعوة الهداية والإسماح ، يقول لمن تكالبوا على المتهمة بالخطية : «من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرجمها بحجر ! » .. حمل إلى البشرية شريعة الحب فى مواجهة العتو والجحود والتجبر والرياء .. تقول شريعة الحب التى أتى بها المسيح للمزهو المتعالى بنفسه : «لماذا تنظر إلى القشة فى عين أخيك ، ولا تنظر إلى الخشبة الكبيرة فى عينك ؟) (متى ٧ : ٣) .. «سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن . أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بمثله ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الخد الآخر» . (متى ٥ : ٣٨ ، ٣٩) .. «احذروا من أن تعملوا بركم أمام الناس بقصد أن ينظروا إليكم ! .. فإذا تصدقت على أحد فلا تنفخ أمامك فى البوق كما يفعل المراءون فى المجامع والشوارع ليمدحهم الناس ! .. فعندما تتصدق على أحد ، فلا تدع يدك اليسرى تعرف ما تفعله اليمنى ، لتكون صدقتك فى الخفاء) . (متى ٦ : ١ ٤) .. «لا يمكن لأحد أن يكون عبدا لسيدين : لأنه إما أن يبغض أحدهما فيحب الآخر ، وإما أن يلزم أحدهما فيهجر الآخر . لا يمكنكم أن تكونوا عبيدا لله والمال معًا !) (متى ٦ : ٢٤) .

مثلما يقرأ المسلم فى القرآن المجيد ، قول الحق جل وعلا : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٢٤] ، فإن المسيحى يقرأ من موعظة السيد المسيح على الجبل : «سمعتم أنه قيل للأقدمين : لا تخالف قسمك .. أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا أبدًا » (متى ٥ : ٣٤ ، ٣٥) .. «وسمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . أما

أنا فأقول لكم : أحبو أعداءكم ، وباركوا لاعينكم ، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم» (متى ٥ : ٤٣ ٤٥) .. يمضى المسيحى فى قراءة الأناجيل فيرى فيما يراه قول السيد المسيح : «لا تدينوا لئلا تدانوا . فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » (متى ٧ : ١ ٣) .. هذه الباحة الإنسانية الفياضة المعطرة بالمحبة والود والتسامح والإخاء ، تقيم جسور المودة بين المسيحى وبين غيره من أبناء الديانات .. هذه المودة التى تحدث عنها القرآن المجيد ، وبذلها النجاشى ونصارى الحبشة للمسلمين ، حتى حزن نبى القرآن ﷺ حزنا شديدا حينما بلغته وفاة النجاشى عرفانا بما قدمه للمهاجرين من كرم الضيافة وصدق المودة وعطر المحبات ..لا يوجد بمدونات المسيحية ، لا فى الأناجيل ، ولا فى الرسائل الملحقة بالعهد الجديد ، ما يورى بعداوة مضمرة للأغيار ، ولا حض على كراهة أو مقت أو عداء .. العداوات صناعة آدمية ، أما الأديان والمدونات المقدسة فتفيض بعطر المحبة والمؤاخاه .. إنكار الذات هو فضيلة الفضائل المتبدية فى التعاليم المسيحية ، وإخلاص المحبة هو حبل الوداد الذى يربط بين المسيحى والناس .. فى كل مناسبة كان المسيح ﷺ يحذر تلاميذه من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة : وهى فتنة التنافس على الرئاسة والصدارة .. فعلمهم أن الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلا فذا لاتقاء غواية الرئاسة حين جمعهم فى محفل وجعل يغسل أقدامهم بيديه الكريمتين ..

يومها نفر الحوارى سمعان بطرس واستهول أن يغسل المسيح قدميه ، ولم يذعن راضيًا إلاّ حين فهم العبرة التى أراد المسيح أن يلقنها إياهم» (يوحنا ٣ : ٤ ١٧) .. يوصيهم ﷺ فيقول لهم : «وأى بيت دخلتموه فألقوا السلام عليه .. وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها وانفضوا غبارها عن أقدامكم » (متى ١٠ : ١٢ـ ١٤ ، لوقا ٩ : ٥ ، لوقا ١٠ : ١٠ ، ١١) .

إن المرء يدين بالمسيحية أولا يدين بها ، لا يمسك عليها نافذة أو كوة ولا شاردة ولا واردة لبث الكراهية أو العداوة أو الاحتقان ، ويلمس فيها كما يلمس فى الإسلام ما تودعه النفوس من القيم السامية مجدولة بنقاء الضمير وفيوض الإخاء والإسماح والمحبة ! فمن أى باب إذن يأتى الاحتقان ؟! هذا حقيقةً هو السؤال ؟!!

*****